لعنة البيت

قصة بقلم محمد منسي

« مرة اخرى . ترى هل نبقى مدفوعين الى الابد ؟ ان هذا هو الجحيم ، الجحيم بعينه ، اننا لا نعيش سوى هذه الإندفاعات . »

وتأفف عارف بكآبة هائجة ، وقال لساري الذي سأله : « مالك ؟ » .

ـ هذه الحياة السافلة . الا ترى انها جحيم ؟

واجابه ساري ساخرا :

ـ اجل ، انها جحيم ، ولكنه جحيم لذيذ . (وزعق) : ويحك هذا ! الا تحس ؟ وغضب عارف برفق :

ـ فقط . لا تمثل هكذا . (وتابع في نفسه) « جحيم لذيذ ! »

وقال ساري :

ـ حسنا ، ان الحياة كلها تمثيل : غالب ومغلوب ، طارد ومطرود ، جحيم ، والناس يمثلون فيه حسب الادوار . (وجف فجاة) : اننا دائما نمثل الادوار اللعينة .

واجاب عارف :

ـ لماذا لعينة ،انها سافلة ، في اسفل الجحيم .

ـ ولذلك فهي لعينة ، ان تسير . وتسير . دونما شيء تنتظره، وان يكون بطنك خاويا حتى من الخراء ، فأظن ان هذه حالة لعينة ، وان لا يكون لك رب يرفق بك في هذا التخبط ، وان تندفع دون نور ولا هدى ، فهذا دور لعين ، ولن نشف منه ابدا . ما اسم هذه القرية ؟ سأل اخيرا وهو يبلغ زبدة .

واحتد عارف :

ـ وهل كان هناك شيء اخر نفعله ؟ اننا لم نندفع ، ولكنا دفعنا ، ككل مرة .

وقال ساري باعتقاد :

ـ دفعنا ، اندفعنا ، كله واحد ، كله اندفاع ، ما اسم هذه القرية ؟

ـ لا اعرف ، لم يعد يهمني .

ـ اذن كم يبقى لوهران ؟ اتعرف ؟

ـ حوالي ١٢٠ كم . (وتمنى) : لو انا نصلها غدا .

وعلى طرف الشارع الرملي ، صفع ساري الارض بقدمه ، وسار متراخيا وقال :

ـ انني خائر من التعب ، سنبيت الليلة هنا .

وقال عارف دون ان يشعر :

ـ اريد ان آكل أولا .

ـ كم بقي معنا ؟

ـ اظنك تعرف ، ثمن السترة ٢٥ درهما ، ذهب منها ١١ درهما في « وجده » ، وتحويلها ، و « مفنية » و « تلمسان » ..

وهاج ساري :

ـ اني لا اعرف ، ولا اطلب منك حسابا . (واستدرك مبهوتا) : ام انها انتهت ؟

ـ لم تنته بعد ، ولكنها ستنتهي الليلة : ٢٢٠ فرنكا فقط .

ـ الى الجحيم ، اشتر نصف رغيف ، وسأشتري دخانا ، انني اريد ان اجد لفافة احرق بها حلقي في منتصف الليل ، سيكون الجو هذه الليلة ابرد من عاهره . هل معك واحدة ؟

قذف عارف بالعلبة نحوه . وقال في نفسه « انه يظن ان التدخين ينقذه » . اخرج ساري اللفافة ، وابقى اصبعه داخل العلبة ، وكأنه يبحث عن ثانية ، ولكنه كان الان قد شعر وكأنه غدر ، فدعكها بيده وقذفها بحقد على طول الشارع . وتابع عارف في نفسه « انه لم ينته منها بعد ، وسيعفسها برجله » ونظر الى وجهه وهو يولع اللفافة فرآه يتحول وينبسط قليلا . وقال « لا بد ان رأسه يتمخض الان » . وقهقه ساري .

فسأله : ماذا ؟

ـ اتعرف ؟ لقد تذكرت الان اشياء كثيرة ، كثيرة ، كثيرة جدا ، قل لي : ما اسم الالمانية التي رأيناها في مرسيليا ؟

وقال عارف في نفسه بامتعاض « انه يريد ان يسخر » .

ـ آن ، آن ماري ، هل هذا ما يضحك ؟

واجاب بلهجة ودية :

ـ اجل ، يضحكني ، الان اتذكرها . (واستطرد وهو يقلد صوتها بخفوت) « انني وحيدة ، الانثى الوحيدة هنا ، لو عرفت امي ... ارجوك ان تحميني ، ابق معي ، انك تعرف اللغة » .

وقال عارف بدفاع :

ـ وماذا في هذا ! طلبت مني الحماية ، لاني الوحيد الذي كان يفهم لغتها . (وسكت قليلا ، ثم قال باعتقاد) : انني كنت سأحميها ، لانها كانت خائفة .

وقاطعه ساري :

ـ ثم انها وجدت في وجهك العفر عصامية يوسف ، اليس كذلك، يا عزيزي ؟ اظن انك فكرت ساعتها كيف ستخيم عليها ، حتى لا يراها احد ، ولكنها مصعت كذبابة لقيطة . (ثم غير لهجته وقال وكأنه يلومه) لو انك كنت اكثر حركة ، واوضح مقصدا ، لما اخذها القبطان . ولكن قل لي : لو انها بقيت ، الان كيف ستحميها ؟ بنفس الطريقة اليوسفية الهشة ؟

بقي عارف ينظر اليه بلا مبالاة ، وقال في نفسه « انه يحذر بصفاقة مريبة ، وكأنه يبتاع نبيذا » . وتابع ساري :

ـ ! اظن انك ، عندها ، ستمثل اخوان يوسف .

وانتفض عارف « انه يلومني لانني بعت الملابس ، يا لرأس التنين ! » .

ودافع بحزم

ـ على اية حال ، فهي ليست موجودة ، الان ، وحتى لو حدث ذلك ، فانها لن ترافقنا جيلا . ولكني افهم ما تريد ان تقول (ونظر اليه مؤنبا بشزر) : كان يجب ان نموت جوعا حتى نحتفظ بملابس انيقة ، هذا ما تريده !؟

وقال ساري بلا مبالاة :

ـ ابدا ، لن اموت من الجوع ، فليس هناك من يموت هكذا ..

ـ افهمك : ان تتسول ، اما انا : فلا ، لن امد يدي .

وقرر ساري ببرود :

ـ سنمدها ، الان او غدا ،وسترى انها نفس النتيجة ، سواء بعت ام لم تبع .

وحنق عارف :

ـ عندما جئنا لنبيعها ، كنت انت تشجع : هيـــا ، بأي ثمن ، اننـا نريد ان نأكـل الآن ، وليكن بعدهـــا ما يكون . والآن ، تتكلم وكأني فعلت ذلك وحدي ، كأنني المسؤول !

واستدرك بسـاري :

ـ اوه ، ليس هذا ، اني اقول لنفسي ايضا . والواقع انني لو اجد من يشتري هـــذا القميص الان ، لبعتـه ، وانا اعرف انني سأعود بعد لحظة ، لنفس النتيجة . اتعرف ان « نفس النتيجة » هذه ، ستلازمنا حتى نموت . ترى مهما صنعنا في حياتنا ، ومهمـا كنا ، وكيفما عشنا ، فسيكون الموت النتيجة الوحيدة لتجربة الحياة هذه ، وانت نفسك تقول هذا . وهو ما يجعلني الان اقدر .

وحدس عارف : « تراه ماذا يقرر ، ان يشحذ ؟ » وسأل :

ـ مـاذا تقرر ؟

وقال ساري ببساطة :

ـ ان اشحذ ، ان اهلي يشحذون علي من « الوكالة » ، فلأشحذ انا على نفسي من هنا . وسكت قليلا وهو يرمي بقية اللفافة ، وقال:

ـ اسمح لي : نسيت ان ابقي لك منها قليلا ، انني انسى كثيرا، وخصوصا في الدخـان .

وقال عارف وقد غام وجهه :

ـ غير مهم . لنبحث عن خباز الان ، فقد نجد .

وسارا على الرصيف ، وكانا قد دخـلا القرية ، وكـــان غروب الشمس يرشقهما من الخلف ببرود ، وبدا لهما ان القرية شبه خالية، وقـال سـاري :

ـ يبدو ان هذه القرية خالية ، لا ارى احدا . (وسخر بصوت هش) : انهم ما زالوا في الجبل .

وعطفا على اول حانوت كان يرتمي على الشارع باهمال ، وخيل اليهما ان صاحبه قد هجره منذ الحرب ، واطلا من الباب ، وهمس سـاري :

ـ انه يجلس هناك كدجاجة على وشك ان تبيض .

ولكنه ما ان سمع سلامهما حتى وقف متحفزا كديك :

ـ اهلا وسهلا .

وانتظر باسما . وقال عارف :

ـ اعطنا نصف رغيف ، من فضلك .

ثم صمت وهو يتبع الحانوتي بنظره ، وقد مال منحنيا يقسـم الرغيف وهو يقول :

ـ انه اخر رغيف عندي ، لو تأخرتما قليلا لما وجدتما الخبـز ابـــدا .

وبدا عليه انه يتحفز ، وسارع ساري يقول :

ـ وعلبة دخان من فضلك .

واشار بيده على علبة زرقاء بينما قال الحانوتي :

ـ من اين حضرة الاخوان ؟

وقال عارف في نفسه « انه يريد ان يقبض علينـا » واجـــاب ساري ببساطة :

ـ سائحان . زرنا كافة الاقطار العربية ، ونزور الجزائر الان . اننا من فلسطين .

وتقدم الحـانوتي بنهـم .

ـ أجئتما هكذا من فلسطين ؟

واجاب ساري ، وهو ينفث دخان لفافة اولعها للتو :

ـ اجل ، اننا نكتشف الاراضي العربية بالشبر . انه وطننا يا اخي ، يجب ان نعرفه ، وخصوصا الجزائر . ارض الابطال .

واسرع الحانوتي يظهر :

ـ انني اعرف فلسطين ، و « انفولا » . ان اليهود اعداء الله ، لقد لعنوا في القرآن .

ثم سأل وهو يهز رأسه عاليا : ألم تبدأ الحرب عندكم ؟

واجاب ساري :

ـ ما زال ايها الاخ ، ولكنها على الطريق .

ورفع الحانوتي اصبعه الى ما بين عينيه وقـــال وكأنه يحدث نفسه « انني اميز ، كيف ! » وهمس سـاري :

ـ ربما نستطيع ان نحصل من عنده على طعام .

ـ لا تحاول . ان وجهه مهذار ، لا تنخدع .

وقـال سـاري :

ـ اني لن اطلب ذلك صراحة ، ولكني سـألمح ، (ولكزه بكوعـه وغمزه) : اعتمد علي ، كلها محاولة .

ودخل رجل يطلب دخانا ، فقال الحانوتي وهو ساهم :

ـ ادخل ، وخذ ما تريد ، ودعني اميز . واستطرد : اني اميز بمشكلة فلسطين ، هذان سائحان من هنـاك .

وهز الرجل رأسه وردد : « من فلسطين » . وخرس . وتناول دخانه وخرج ، وقال ساري :

ـ قل لي من فضلك : هل يوجد هنا بنك ؟ اننا نريد ان نصرف هذا الشك حيث لم يبق معنا نقود جزائريـــة ، ونريـد ان نشتري طعامـا .

وانتفض الحـانوتي :

ـ بنك ؟ لا يوجد ، انهـــا قرية صغيرة . ولكن حـــاولوا في البلدية . وخرج الى الباب وهو يشير بيده : تلك هي البلديـة ، حاولوا .

وقـال عـارف :

ـ هيا . (واستطرد بعد ان ابتعد قليلا) : لقد قلت لك مـــن الاول ، فـاجرع .

واجاب ساري بلا اكتراث :

ـ ماذا اجرع ، لم اشرب شيئا . انه لم يعرف ، وقد صدق ان معي شيكا .

واسرع عارف ينفي .

ـ ابدا ، لقد عرف ، لانه يعرف تمامـا ان الشيك لا يصرف الا بالبنك ، والا لما اسرع واخرجك مـــن الحانوت . (وتابـع بلهجـــة خفيفة) : انه يميز ، يميز كثيرا . في هذه فقط ، على اية حـال لنجلس في هذا المقهى .

كان المقهى الصغير لا يكاد يظهر ، ولا يسمع له حركة ، وكأنـه قد اعتزل على ان يكون مقهى ، وربمـا انه يشعر الان بالخزي لانـه اصبح قذرا لا يجلب سوى الذباب . افصح عن هذا شفـاه سـاري التي تحطمت قليلا على شبه عجرفة ولكنـه جلس ، وولى الفـــروب ظهره ، واسند يده الطاولة ، واحس انها دبقة ، ولكنه ترك يده على وضعها دون اهتمام وظل يمضغ لفافته ، وقد احس بحذر كحمـــام ، ونظر الى عارف هنيهة فرآه مغبرا متوترا واشاع بوجهه جانبا ، حيث

زوروا مكتبـة السـلام

السودان ـ حلفـا الجديدة ص. ب ٢٣

جميع الكتب وادوات المدارس ومطبوعات دار الآداب

نظر النادل يستأذنه . فأعاد النظر الى عارف وقال : قهوة ، ورمى برأسه على الطاولة .

كان عارف الان يشعر وكأنه يدور في حوام غير غادل ، وادار وجهه لباقي الشمس ، كانت اشعتها تغطس تحت عينيه ، وقال في نفسه : « اني ادوخ : ان الحياة مجرد اندفاعات ، وفي الاندفاعات هذه يتقرر الاختيار » . واطل على الماضي : في عالم يبدو بعيدا جدا وقريبا جدا دون لمس ، تراءى له هلاميا مموجا ، واحس باعياء خدر ، وقال : « هنا تكونت ، تكون عارف ، المعفر ، الذي يردف معه حقيبته الصغيرة القذرة . » وهمر : « عارف ! ماذا فعلوا بك ؟ لا أفهم ! وانا ايضا لا افهم ، ولكني ادري : لقد رشقتك امك على ظهرها ، اتسمع الصراخ ؟ لا افهم ! انه صراخ هائل ، وضوضاء . اتسمع هذا الازيز ؟ لا افهم ! انه ازيز رصاص ، واهلك يهربون ، امك تخاف عليك كثيرا ، انها بتسمل ، لا تصرخ هكذا . لا افهم ! ان امك تقطع بك الشريعة . ان حلقها جاف كقصيبة: يجب انتنجوا من الذبح . لا افهم ! يكذبون، مساكين ، لقد خدعوا . كذب عليهم : مجرد ضيافة على الشاطىء الاخر ، ولكنهم يغدرون : الموت وراءهم مليون عزرائيل حاقد والضياع امامهم يمتد مهينا وقاسيا كالفيلان ، وقد لعنوا ، وستطاردهم اللعنة هم وذريتهم . لا افهم ! اني ادري ، وسوف تدري . عارف ! ماذا يفعل بك هذا ، اليس هو عمك ؟ نعم ، ولكنه يكرهني ، من انت ؟ لا تعرفني ، لا بأس عليك ، ستعرفني ، ولكن لماذا يكرهك ؟ انه يكره امي ، كلهم يكرهونني هنا ، لقد وضعني ابي هنا ، ولكنه لا يسد افواههم ، انه لا يعطيني شيئا . أأنت خائف ؟ نعم ، خائف ، وحافي، وجائع ايضا . انها اللعنة ، تسمم النفوس ، وتوغر الصدور . اي لعنة ، اني لا افهم !؟ انها لعنة البيت المداس ، لقد أهين ، واصبح مقيلا لبغالهم تروث فيه . اني لا افهمك ، ولا افهم احدا ، اني غريب هنا ، غريب عن كل شيء ، حتى عن كلامك هذا . لا بأس عليك ، هذا لانك بعيد عن حضن امك ، انك ما تزال تحتاجه ، وهم هنا مغبونون . عارف ، لماذا مغتاظ ؟ من انت ، لا اعرفك ؟ ستعرفني ، ولكن اجبني . لقد بليت : ان هذه مجنونة ، وانا هنا اكثر غربة ، وهم يستعبدوني بالشفقة ، ان ابي نذل . لا بأس عليك . تستطيع ان تتابع . اصرف عن وجهي ، اذا اعرف اني اتابع . عارف ، لماذا لا تبكي ؟ لا استطيع ، من انت ؟ ستعرفني ! اني اتفحصك ، ولكني اشك فيك . غير مهم ، ولكن الا تحبها ، لقد كنت وحيدها املا وحياة ؟ بلى ، احبها ، ولكني فقدت الدموع ، لقد غارت فجأة ، لقد امتصها غول . انها اللعنة : نشفت الينابيع في وادي الرحمة ، انها الفيلان السود تبلع بقايا الامل ، وتدفن اخر حجر اساس طالما سند البيت الذي كان مقيلا للوئام والحنان . ماذا تعني ، لا افهمك !؟ هيا ، لا تكن غبيا ، فكر قليلا ، فكر لماذا ماتت ؟. لقد مرضت ، اكلها المرض، لقد اختلى بها كنمر في غابة رهيبة . وبعد ، ماذا فعلتم ، الم تحاولوا دخول تلك الغابة الرهيبة لتنقذوها ؟ حاولنا ، ولكن ، ليس معنا سلاح ، اننا لا نملك شيئا ، لقد افترسها ونحن ننظر . ولماذا لا تملكون شيئا ؟ من اين لنا ، ان ابي بالكاد يحصل على الخبز ، وليس هو موظفا ، وليس لنا ارض نعيش عليها وتعطينا ، ان ارضنا اغتصبت ونحن لاجئون . فقط ، قف : لا تصطنع المسكنة هكذا كعبد ، والا حلت عليك اللعنة انت ايضا ، ان اللعنة لا تحل بالمتمسكنين ، والذين استكانوا ببلاهة وغباء . ماذا افعل ؟ اقل شيء : ان تصرخ ، ان تسب ، وتحتقر ، ان تظهر هذا الشعور علنا . وماذا يعني ويفيد ؟ انك لست مسكينا ، ولا مستكينا ، وهذا سيشعرك بأنك فوق اللعنة ، ولا تستطيع ان تحل عليك . عارف ، لماذا انت كئيب ؟ من انت ، اتركني ؟! ستعرفني ، ولكن قل لي لماذا ؟ ابي ، يطردني ، ليس لي شيء الان ، لقد فصلت ، وكأني خرع اجرب ، كنت الان قدرأيت اني اسقط في اخر العالم ، فارغ الرأس ، وكانت اذناي مقطوعتين : ترى ايكون هذا الاسود الذي يلفع كل شيء هواصل العالم ؟ وفي لحظات نزلت هيئة علوية ، وقررت ، بغبن ، عدم صلاحيتي للتمثيل ، اذا كان ذلك المسرح ، الوحيد ، والذي فقدته ، فاني استطيع ان افسر هذا الشعور بالعنف ، واللااهتمام ، الذي يجتاحني ، وقد رأيت لحظتذاك ، السيد ، ذا الكتفين العريضين ، والوجه الداكن المتجهم ، بلباسه الحزيري الاسود اللامع ، مفروسا في قاعة الحكم ، وكيف كان يتكلم دون ان يفتح فمه ، وملازميه المصطفين حوله ، بثيابهم الكتانية الحمراء ، على شكل تماثيل من الحقد واللااكتراث . وادرت فيهم عيوني دون ان انظر : لا جدوائي ؟ وصرخت : كلا ! وقفزت وجذبت السيد من وراء طاولته الضخمة بعنف : سأقتله ، ولكن ملازميه خلصوه من يدي قبل ان اظفر به ، وعندها وقف بخشونة وحكم علي بالطرد ، وسمعت صوت امرأة قادما من على سطح العالم ، فوثبت صاعدا كالزنبرك ، وسمعته يشتم : والعري ايضا ، الطرد والعري . ترى اني فصلت تماما ، عائم ، بلا روابط ، تبخرت اسطورة البيت الى الابد ، انني مفلت . لا ورائي ولا امامي . لا ، لا تقل هذا ، امامك الكثير ، اشياء كثيرة ، انك على الطريق. لقد خرجت من اللعنة تماما ، ولكنك الان على الطريق ، الطريق الذي يخطه كل الذين يصرخون في وجه الاستكانة ، انهم يحملون حكمهم على عواتقهم ، وهكذا يتحررون . عارف ، ما بالك ؟ من انت ، لا اعرفك ؟! ستعرفني ، ولكن ما بالك ، اراك هائجا . انه يقول انه جبار ، وانا ابنه ، يعني ملكه ، ولكني لا اخض ، منذ اكثر من سنة طردني وقال انه لم يعد لي شيء، والان ، يقول اني ابنه ، ولكونه ابا ، فهو جبار ، ولكني حر ، انا ابنه ، صحيح ، ولكني لا اخصه ابدا ، اني لا اخص الا نفسي، ليس لي أحد ، ولست لاحد ، وسأثبت لهم ذلك ، لقد اصبحوا جحيما ، جحيما لي . أأنت حاقد ؟ اجل حاقد ! على من ، على ابيك ؟ اجل، عليه . هيه ، لا تكن احمق ، الم تسأل نفسك لماذا اطردك وقد برعمت واقترب ثمرك ؟ عرفت انه يكرهني . لا تكن متسرعا ، فكر يا عارف ، لا اظنك غبيا ، ما هو اصل المشكلة ؟ انه لا يعطيني نقودا ، وانا ادرس في المدينة ، واذا لم احصل على النقود ، طارت المدرسة . وكيف هي حالته ؟ صحيح انه فقير ، وهو شبه عاطل ، ولكني بحاجة للنقود ، ولا استطيع ان استمر بدونها . بس ، ولماذا هو فقير ، لماذا هو شبه عاطل ، لماذا يريد ان يملك ، اليس هو احد الطرودين ؟ عارف . لا تعصب عينيك ، الا تظن بأنه يشعر بانه مغدور ، وانه كلما اراد ان يحصل على شيء ، امتلأت يده بالبرغش الحقير ، وانه يحس بالفيلان تمزقه ، انها اللعنة ، لعنة البيت الذي اندثر ، واقيم على انقاضه بيت للعاهرات ، ان البيت لم يعد يحتمل ، انه لم يألف العهر بين جوانبه ابدا ، ان مصطبته امضت حياتها شريفة كالنور . عارف، ان لعنة البيت لا يتحملها الا المساكين المستكينون ، اما وانك تشعر بانك حر فلا تكن اعمى . ان الحر لا يجوز له ان يكون اعمى ، اما هو فانه يتخبط . لا يدري اين يضرب لينش عنه الفيلان التي يحسها ولا يراها . ماذا تريد ان تقول ؟ اريد ان اقول لك ان هذه هي المشكلة : البيت الذي يتصبب عرقا . وهو يحس بالالم والخزي . وانك يجب ان لا تحقد ، فالحر لا يجوز له ان يحقد والا كبله الحقد وعاد مستكينا له ، وعندها الويل له . وقد عرفت ، فخذ حذرك ، انك مسؤول عن حريتك هذه ،مسؤول امام الصوت ، صوت الحرية الذي انفجر في اعلى رأسك ، فاصعدك واثبا كالزنبرك . ولكن ماذا افعل ؟ آه ، انا لا اقول لك ، فانت تقول انك حر . هاه ، اني اراك تفكر ، ماذا ستفعل ؟ سأسافر ، ما دمت مجبرا على العوم ، فلم لا اصطنع الاختيار . هل صدقت بأنني حر ، انني اريد ان اكون كذلك، هيه ، ولكن اين ؟ الى اوروبا ! انك تجعلني أخرس ، سنلتقي اذن. من انت ؟ ستعرفني . اني اراك رجل سفر ، انك تطربني ، انك تجعلني في حلم ، سأسافر ، انا حر ، ولا أخص احدا ، انك رائع ، ساكون مثلك . والبيت ؟ لا استطيع له شيئا ، لا استطيع . يعني تهرب ؟ اهرب ، أهرب ، اهرب ، ومن تظن انه يستطيع شيئا سوى

الهرب ، سأهرب ، انه جحيم . اذن لقد أصابتك الا قليلا ، هيا ، لقد ابكتني ، وستكون مثلي . « اني اخدعه ، ولكني لا استطيع له شيئا آخر ، ووضعه ومنطقه ، لا يسمحان لي الا بهذا » . عارف ، ما هذا الذي تفعله ؟. ما ترى !. اني لا ارى جيدا ! آه ، انك لوغد ، انظر جيدا وقل ماذا ترى ؟ انك تندحل على مقعد خشبي في حديقة ، انك في بيوغراد ، والوقت اخر الليل ، وانت لا تملك فلسا على منا ارى . صحيح ، وماذا أيضا ؟ تنهض ، الجو يندف ثلجا . ولكن لماذا نهضت ، الا ترى هذا ؟ اني لا اراه ، ايها الوقح ، هذا لا يرى. حسنا ، ان المقعد اصبح باردا كهذا الثلج الذي تراه . ليس عندي ثلج لاحسه ، ولكن درجة الحرارة تقارب . ، ما دمت تحكي بالدرجات، فهي عندي اكثر من ٥ تحت الصفر ، وانا مفتاظ ، وجائع ، ولكني اتصنع اللامبالاة ، وان اكون صبورا كحمار . اتنكرني يا عارف ؟ لا ، انكرك ، ولكنك بالنسبة لي مجهول ، ولست اكيدا ، فمعرفتي لك ، ليست حقيقية ، انها مشكوك فيها . اما انت فحقيقي ، ولكنك مزيف بالنسبة لي انا ، اني اراك ، ولكني لا احسك ، اني احسني ، ولا استطيع ان احس بالاثنين معا ، فانت لا زلت بعيدا عني ، اتعرف كيف انا : اني اقضم بقايا قطعة من الخبز مع فنجان قهوة ، وساري الى جانبي يدخل وهو غائم . لقد سرنا كثيرا ، اننا مرهقون جدا ، نبحث عن عمل ، ولم نجد ، اننا متوجهان الى العاصمة ، اننا نبيت على الطريق ، في الخلاء ، ليس معنا فلس واحد ، ولا ننتظر شيئا ، الا تزال تراني رائعا ؟ انني حائر فيك ، هذا كل ما هنالك ، ولكني لا اكرهك . الا تود العودة ؟ اودها ، ولكني لا استطيع ، ما جدوى ان اودها وانا لا استطيع ، اني مشغول الان لايجاد طريقة للخروج من هنا ، لاتابع ، فدعني وحدي . هل تفهم ماذا تفعل ؟ اجل افهم ، اني احمل مسؤوليتي على عاتقي ، انها غيلاني . « آه ، اود لو استطعت ان تعود » . هيه ، عارف ، ما هذا ؟ اني اعيش ، مالي اراك عفرا ؟ ستعرف فيما بعد ، ولكن من هذه ؟ انها صديقتي الالمانية الجديدة ، اني انكرك ، فاغرب عن وجهي الان ، ان منظرك قرف وقذر ، فلا تدعني اراك . حسنا ، اني تاركك . عارف ، الى اين ؟ اظن الى فرنسا . ساري معك ، وماذا ستجد في فرنسا ؟ اعرف ان لا شيء ، ولكني عائم ، ليس لي شيء ، لا خلفي ولا امامي . لا ، امامك اشياء كثيرة ، حاول ان تقتصد ، اذكر بيوغراد ، وغيرها بيوغرادات ؟ اذكر ، ولكن لا يهمني ، لقد تعودت ، ماذا تظن انه ينتظرني ، لا شيء ، ما اهمية ان اقتصد ؟ افعل ما بداك ، انك لعين . اتندم لي ؟ ابدا ، اني لا اندم ، انظن اني اندم لمطرود مثلك ، لا بيت له ، ولا رابطة ولا شيء . اتركت اسطوانة امامك الكثير ؟ لا ، انها ليست اسطوانة ايها الوقح، سترى ، ولكني اقصد ما خلفك ، ماذا تظنه ، لطخات من المآسي ، وغيلان تهبجك كالسياط ، وستبقى وراءك دائما . اعرف ، ليس مهما . ماذا تعرف ؟ اعرف اني اتشرد ، واني لن اموت ، فالمشردون لا يموتون . يا لها من حكمة صائبة ، لا يموتون ، ولكنهم يفطسون . اين تكون الان ؟ هذا سر ، لا استطيعه . اين الحقائب ؟ لقد بعت الملابس ، فقذفتها ، وبقي معي هذه الصغيرة الحقيرة . يا لك من أبله !. يحق لك ، ولكن سترى . هيه ، أين ؟ الى الجزائر !. هيا اسرع ، انني هنا انتظرك . ولكني لا انتظرك . أأنت حاقد ؟ لا ، ولكني الان لا اصدقك . ترى ، لانهم زينوها لك : يلمون من الشوارع للوظائف . لا تهزأ هكذا ، انك متشائم كبوم . ابدا ، ولكنك انت متفائل اكثر مما ينبغي ، واني لاعرف هذا ، انها الكبرياء ، الكبرياء اللعينة . ليكن ، انه كياني ، ولولاه لاصبحت مجرد تراب معجون بالدم ، مجرد مركبات عضوية مهينة . « انه لا يزال يشعر بكبريائه ، بكيانه ، أأهدره له ؟ لا ، لن اهدره . والا سقطت في عينه ، ليبق، بل انه الذخيرة الوحيدة ، انه ذخيرة المشردين جميعا ، وملكهم الوحيد ، انه كيانهم الاول والاخير ، انه بيتهم حيث هدمت جميع البيوت ، انه غناهم حيث افلسوا ، لن اهدره انه انا » . عارف ، ماذا تفعل ؟ انها قنصة ، الانثى الوحيدة هنا ، وتريد ان احميها ، سأحميها جيدا ، سأحميها وسأدفئها ايضا ، ولكن لماذا تواجهني الان ، اغرب عني في مثل هذه الحالات . لا تتضايق . سأقول لك شيئا بسيطا . اعرف ما ستقول ، ستحذرني ، امامك وامامك ، ليكن امامي ما يكون ، لست اخاف على شيء ، قلت ، لا الماضي ولا المستقبل يهمني . لا انا مهم ، ولكن ليس هذا ماجئت اقوله ، اريد ان اقول لك عشر ، هذه صداقات الطريق ، فلا تجعلها تفوتك ، ان لها طعمها الخاص كطعم التوت . حسنا قلت ، ولكن دعني . اني تاركك ، حتى اللقاء ... » .

كان الليل الان قد انبطح على الارض مهيمنا وكأنه يضاجعها ، وقد ملأ الكون رهبة واحتراما كموسى يلقي عصاه ، وكان ساري يتوسد يده ويمضغ الدخان في شبه استمرار حانق ولا ابالي ، ورفت ابتسامة بليدة على وجه عارف ، فقال ساري :

ـ اظن انك شبعت الان ولذلك تبتسم !

وقال عارف :

ـ لا ، وانما جاء على بالي ذلك الحانوتي الذي يريد ان يميز .

وقهقه ساري بانفلات :

ـ انه يميز كالعباقرة ، اظن انه ما زال يميز .

وقال عارف فجأة كصياد اوقع صيدته في الشرك :

طالعوا كل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديب

الحكمة

العرفان

العلوم

فهي تحمل اليكم النتاج الفكري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادباء

ـ ولنميز نحن ايضـا .
وسأل ساري :
ـ بماذا نميز ؟
ـ لماذا نحن هنا ؟ لماذا لا نكون هناك مثلا ؟
وخرش ساري ، وبدا عليه انه امتعض ، وتابع عارف :
ـ لماذا تسكت ؟
ـ لانه يخيل لي اننا لن نكون هناك ابدا ، لقد قضي علينا ذلك، وارى انه اذا ما كان واجبا ان نميز ، فلنميز اين ننام الليلة .

وتجاهل عارف الاقتراح ، وغاص ملاحقا ، وقد احتد :
ـ « قضي علينا » ان القضاء اصبح اسطورة ، اننا ننهزم ونتخذ من القضاء عذرا ، ولكنه عذر اقبح من ذنب ، صحيح اننـا غدرنا ، ولكن اظن ان ذلك يبرز هربنا ، والى متى ؟

واحتد ساري مقـابلا :
ـ اولا ، انا لا اميل ان ابرز ، كوني هنا ، او هناك ، او في اي مكان ، كل ما هنالك اني اعيش ، كيفما اتفق ، ما دمت « ساري » ، وثانيا انا لست هاربا .
وسخـر عـارف :
ـ انت لست هاربا ، انت سائح تتنزه ، وفي جيبك بطاقـة مزيفة ، اردني من الدرجة الثالثة ، وهذا ما يجعلك تصدق انك لست هـاربـا .
وقـال ساري برفق :

ـ اسمع ، اردني ، فلسطيني ، انا اعرف انني مزيف ، مـن اولي الى اخري ، فانا اردني بالبطاقة ، وفلسطيني بالوراثة : منحوني كساء واورثوني عريا ، اما كوني هاربا ، فانا ايضا هـارب بالوراثة ، مطرود بالوراثـة .

وسكت قليلا وكأنه يستجمع نتائجه :
ـ ماذا تريدني ان افعل ؟ حتى لو ميزت الف سنة . لقد ميزنا حتى الان بما فيه الكفاية ، ميزنا الى حد ان التمييز اصبح مسخرة . اننا نميز بها من قبل ان تقع ، وبقينا نميز ، وقعت وبقينا نميز ، وما زلنا . ماذا تحتاج ؟ انها لا تحتاج الى كل هذا ، انهـا واضحـة كالشمس ، الا تعرف ماذا تحتاج ، فلماذا تميز ؟

وقال عـارف بسهوم :
ـ اميز لماذا لا نكون هناك ، فهذا ينقذنا من الضياع الذي نحن فيـه .
وقـال سـاري .
ـ ان تضيع هنا او تضيع هناك ، ما الفرق ؟ بل انه هنـاك اكثر مرارة ، لانك معروف. (ثم غير لهجته) : عزيزي، اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا ، ان كنت تميز في هذا . (وقال بتهكم مرير وكئيب): ساري وعارف ، ماذا يساويان ؟ ماذا يستطيعان ان يفعلا ؟ ان استطاعا ان يفعلا شيئا فليجدا خشة يبيتان فيها . عارف اننـا نستطيع ان نثرثر ، ان نصرخ ايضا ، ولكن ليس شيئـا اخر . فلماذا نصـدع رؤوسنـا ؟
وهاج عارف في نفسه حنقا : « لقد دخنا : حياتنا ليس لهـا تبرير . ان ما فعلناه وما نفعله وما سنفعله ، ليس سوى اندفاعـات مجحفة ظالمة ، تغدرنا دائما ، ولسنا نستطيع شيئا سوى صرخة ، يـا لاستطاعتنا المتواضعة الحقيرة » ونظر الى ساري : « انه يدخن ، وهو لا يريد ان يصدع رأسه ، اجـل ، ان تمييزنا لا يفعـل لنا سوى الصداع ، ولكننا بالتأكيد نستطيع شيئا اخر ، بل يجب ان نستطيع» وشعر فجأة وبأنه يريد ان يدخن وقال لساري :
ـ اعطني لفافة . اتعرف ، سيكون الطقس هذه الليلة جليديا ، ولن نستطيع ان نرقد هذه الليلة ، الافضل لنا ان نسير .
واجـاب سـاري :
ـ لنبحث عن مكان ننام فيه . انني تعب جدا . (واضاف وقد لمعت برأسه فكرة المسجد) لنذهب الى المسجد .
وقال عارف وقد قرر :
ـ المسجد ! اننا لن نكون اولياء ، ولن نكون شحاذين ايضـا ، الافضل ان نتابع ، فقد نجد على الطريق منحدرا نتقي به الريـاح . (واضاف وكأنه يحدث نفسه) : والعيون . هيا بنـا .
وتكاسل ساري قليلا ، ولكنه نهض ، وقال بلا مبالاة حـاقدة :
ـ اننا ملعونون ، سنبقى نبحث الليلة عن حفرة ننام فيها ، وغدا سنبحث عن حفنة من التراب نسد بها افواهنا الجائعة ، وهذا مـا سنجده اخيرا .
وسارا جنبا الى جنب ، خارجين مـن القريـة . وعلى طول الطريق كانت اشجار البرتقال تنام واقفة في ارضها مشدودة اليهـا بجذور قوية ، والليل قد هيمن على مدى الافق الها غوليا متوحشا . ونظرا الى بعضهما ، فالتقت عيونهما ، ولكنهما عادا ينظران حولهمـا وقد شعرا بالفظاعـة .

الجزائـر — محمد المنسي

صدر حديثـا

الخيلُ والنِساءُ

بقلـم الدكتور

عبـد السلام العجيلي

مجموعة قصصية جديدة لقصاص سوريا الاول

الثمن ٢٠٠ ق.ل — منشورات دار الاداب